الفصل الثالث عشر:
الأمويون وفلسطين

ريدة خضر البرعى

لم يكن كل العصر الإسلامى مثاليًا، بل لطالما شابته الشوائب، وتخللته المؤامرات، ولعل خير دليل على ذلك هو انتصار معاوية بن أبي سفيان على علىً بن أبى طالب، مؤسساً بذلك الدولة الأموية.

تُنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيداً من سادة قريش ومتنافساً مع ابن عمه، هاشم بن عبد مناف، على الرياسة والشرف، وقد تجمع لأمية عناصر السلطان في الجاهلية، فهو من أرومة جيدة، وله مال كثير، وعشرة من الأولاد النجباء، وإذا تجمعت لشخص هذه العناصر في الجاهلية يكون قد ضمن الشرف [1].

ظل التنافس قائمًا بين بنى هاشم وبني أُمية، إلى أن دخل بنو هاشم الإسلام، وانقلبت العلاقة بينهما إلى عداء ظاهر، حيث وقف بنو أُمية موقفًا حازماً ضد الرسول، ودعوته، ولم يدخل بنو أُمية الإسلام، إلا بعد أن سُدت كل الطرق في وجوهم، وذلك عندما زحف محمد صلى الله عليه وسلم بألف من المؤمنين، يدخل بهم مكة، وبهذا كان بنو أميه من أشد أعداء الإسلام، ومن المتأخرين في الدخول فيه، ولكم ما إن دخلوا فيه، حتى أظهروا بطوله رائعة. وقد فقد أبو سفيان، زعيم أُمية، إحدى عينيه، وهو يشترك مع الرسول، في إحدى غزواته، ثم فقد الأخرى في موقعة

اليرموك وهو يقاتل تحت إمرة إبنه يزيد. ويروى أن زوجته كانت تشترك في حروب الفتوح [٢].

كما أن النبى صلى الله عليه وسلم راضى بنى أميه وجعل لهم امتيازات خاصه، فقال عند دخوله مكه " من دخل دار أبى سفيان فهو آمن "، وأعطى من غنائم حنين لكل من أبي سفيان وابنه معاوية مائة بعير، ليتآلفا، فكانا ضمن المؤلفه قلوبهم، وأصبح معاوية من كُتاب وحي النبى [٣].

كان يزيد بن أبى سفيان قائد أحد الجيوش الأربعة، التي وجهها أبو بكر لفتح الشام، وجعل يزيد من دمشق وجهته، ولما أراد أبو بكر أن يرسل مدداً لهذه الجيوش، كان معاوية على رأس المدد الذي أرسله ليزيد، وحارب معاويه تحت إمرة أخيه. وتولى الفيلق الذي فتح صيدا وبيروت وغيرهما من مدن سواحل الشام. ولما تم النصر للمسلمين، في عهد عمر، ولى يزيد ولاية دمشق، وجعل معاوية واليًا على الأردن، وتوفى يزيد في طاعون عمواس، في عهد عمر، فضم معاوية ولاية دمشق إلى ولايته [٤].

تطلع بنو أمية للخلافة، منذ عهدها الباكر، على أنه لم يكن لهم فيها أمل، في عهد أبي بكر، وعمر. ودخل معاويه على أبيه، حينما استعمله عمر على الشام، فقال له أبوه. " يابنىّ إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا، وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجرى إلى أمد لن تبلغه، وإن بلغته لتنفست فيه ". واستجاب معاويه لرأى

والده، الذي نصحه، فأحسن السيرة، ومهد لنفسه في الشام [٥].

بعد ما تولى عثمان الخلافة، انفجرت أسباب السخط في ولايات شتى، ودعا الثائرون إلى إصلاح أحوال المسلمين، وتخفيف الفروق بين الأغنياء والفقراء، بزعم أن العرب الذين نزحوا إلى الولايات المفتوحة حصلوا على ثروات كبيرة، في حين كان جوارهم بعض المسلمون يحيون حياة أقرب إلى التقشف. وتجمع أهل الكوفة والبصرة ومصر وضربوا حصارًا حول دار عثمان (شوال ٣٥ هـ / ٦٥٥ م) أربعين يومًا، ثم دخلوا دار عثمان، يتقدمهم محمد بن أبى بكر، وقتلوه، يوم الجمعة، الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٦٥م). بمقتل عثمان تمت مبايعة على بن أبى طالب، وبايعه أهل مصر والكوفة والبصرة، ولكن معاوية، الذي كان واليًا على الشام، رفض مبايعته، ودعا أهل الشام ورؤساء الأجناد، لتحريضهم على الوفاء للخليفة المظلوم (عثمان) والطلب بدمه. وهنا ظهر عمرو بن العاص، الذي وجد على عثمان، حين عزله عن مصر، فلما اندلعت الثورة على عثمان، كان ابن العاص من المعارضين لعثمان، وعندما وصلت الثورة إلى غايتها، آثر ابن العاص أن يعتزلها، فخرج إلى إلى أرض يملكها بفلسطين، وأقام بها، ولما جاءه نبأ مقتل عثمان قال " ماحككت قرحه إلا وأدميتها ". وانضم ابن العاص إلى معاوية، حيث اجتمعت المصلحة بينهما، فعمرو أراد ولاية مصر، فيما أدرك معاويه بأن عمرو داهية من دواهى العرب، وشيخًا ذا مكانة من شيوخ قريش، وهو صاحب حرب ومكيدة، فتح فلسطين ومصر، واطمأن عمر بن الخطاب إليه، منذ فتح مصر. فضمه معاوية إلى

معاونيه. [٦].

يعد على بن أبى طالب من أخطر فرسان المسلمين، فهو المحارب الذي لم يُهزم، أبداً، حتى حين نشب القتال بينه وبين معاوية، انتصر علىّ حتى اضطر جيش معاوية أن يرفع المصاحف على الحراب، طلبًا لوقف القتال، والاحتكام للقرآن. وعندما طعن عبد الرحمن بن ملجم الحميرى علىّ بن أبى طالب، خلا الأمر لمعاوية [٧].

هكذا نجح الإسلام في تقويض المجتمع العبودى، وحاول الخلفاء الراشدون بناء مجتمع مثالى فيما أدت تحالفات الخليفه الثانى، عمر بن الخطاب، إلى تعزيز موقع بنى أمية في النظام الحاكم، ثم أعطى عثمان بنى أمية دفعات قوية إلى الأمام، وحاباهم في المال والسلطة، وحين وصل إلى موقع الخليفه علىّ بن أبى طالب، جوبه بمعارضة قوية من ممثلى الإقطاع، المتمثلين في بنى أُمية الذين استقووا بالمؤامرات، فيما لاذ علىّ بالأساليب المبدئية، في الصراع مع بنى أُمية، فكانت الغلبه للأخرين، على النحو المعروف.

بدأت فلسطين مرحله جديدة من مراحل حياتها، حين أعلن معاوية بن أبى سفيان نفسه خليفة، واستهل عهده بالذهاب إلى بيت المقدس، حيث أعلن خلافته في العام ٤٠هـ / ٦٦١ م [٨].

بعد مقتل علىٍّ، قامت بعض المحاولات من أجل البيعه للحسن بن على. وقد بويع بالفعل من بعض الشيعة، لكن الحسن كان قد عاصر المشكلات التي عاناها أبوه، وعرف أن أباه لم يستطيع التغلب عليها، وإذا

كان البطل قد عجز عن حل المشكلات، فما أجدى بالحسن أن يطلب السلامة، إيمانًا منه بأن تيار الأحداث كان أقوى منه. وتم الصلح بين معاوية والحسن، وتنازل الثانى للأول عن الخلافة، مقابل بعض الشروط، عام
٤١ هـ / ٦٦٢م [٩].

انقسمت الشام في العصر الأموى إلى أجناد خمسه هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند الأردن، وجند قنسرين. وتبعت جند فلسطين أقاليم التيه والجفار وكلاهما على الحدود مع مصر. وكانت اللد عاصمة هذا الجند، وعندما أنشأ الخليفة الأموى، سليمان بن عبد الملك، مدينه الرمله جعلها العاصمه الجديدة للجند. وأكبر مدن جند فلسطين هي القدس. ورغم ضيق مساحتها، فإن بها حوالى عشرين مسجداً. وجند فلسطين هي اخصب سوريا ومن مدنها عسقلان والرمله وغزة أرسوف وقيساريه ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين ومعظم أراضيها جبلية، والسهول فيها قليله، وجند الأردن يتبعه كور الغور المنطقه الواقعه حول البحر الميت، وعاصمه هذا الجند طبريه، ويتبع الجند السامرة (نابلس) وبيسان وصفد وجرش وعكا وصور [١٠].

حين تولى معاويه بن أبى سفيان الخلافة، جعل من دمشق عاصمه لخلافته وتولى حسان بن مالك جند فلسطين والأردن، فيما كانت فلسطين، عند قيام الفتح الإسلامى، تضم عناصر سكانية متعددة، من الروم، والفرس، والزنج، واليهود، والسامرة، فيما كان العرب أهم هذه العناصر، وكانوا قبائل انتشرت في جنوب فلسطين وشرقها وفي البادية وهم في

الغالب من العرب المستعربه مثل قبائل غسان ولخم وجذام وعامله والقسين وبهراء وكلب وسواها وكان عدد كبير من افراد هذه القبائل يدين بالنصرانيه، ووقف بعدهم أبان الفتح إلى جانب الروم والبيزنطين وتحواوا بعد ذلك إلى الإسلام وقد نزل الأمويين في بقاع مختلفة من جندى الأردن وفلسطين في أبله وبقاع ومعان والبلقاء ووادى الأردن والساحل الفلسطيني وبئر السبع، كذلك نزلت جماعة بنى مخزوم في منطقه غزة وعمل بنو امية على ائتلاف هذه القبائل إذ كان لبعضها علاقات تجارية مع الأمويين قبل الإسلام ومعاوية منذ أن كان واليًا على الشام، أنزل العرب بمواضيع نائية عن المدن والقرى ومنحهم حق استغلال الأراضى التي لاحق فيها لأحد ثم ما لبث أن ملكهم أياها وصار خلفاؤه من بعده على هذه السياسه الأمر الذي أدى إلى نشوء إقطاع عربى واسع في بلاد الشام عمومًا وفي فلسطين بخاصه[١١].

إلى جانب طبقة المسلمين العرب ثمه فئة ثانية من الأهالى هي فئة الموالى وهم المسلمون من الأعاجم ومعظمهم من الأراميين والسريان وهم السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وكان رأب هولاء ان يلتحقوا ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء فيعتبرون من أفراداها ويحتسبون من مواليها لكن التحاقهم بالعرب على هذه الصورة أدى إلى اعتبارهم الطبقة الاجتماعية الدُنيا في البيئة الإسلامية فامتعضوا لذلك أشد الامتعاض وأظهروا هذه المرارة التي ملأت نفوسهم بانحيازهم إلى الشيعة في العراق وإلى الخوارج في فارس ولقد كان الموالى هم السابقون في

المجتمع الإسلامى إلى تركيز جهودهم على العناية بالابحاث العلمية والفنون الجميلة. وما أن أظهروا تفوقهم على العرب في ميدان العلم والفكر، حتى أخذوا ينافسونهم في تولى الزعامة السياسية، ثم نتج عن اختلاط الموالى بالعرب، عن طريق الزواج، إلى تهجين الدم العربي، وحتى آل الأمر، أخيرًا، إلى إطلاق لفظة " عربى " على جميع المسلمين الذين تحدثوا العربية، دون اعتبار العِرق، الذي تحدروا منه(١٢).

أما السكان الغير المسلمين، فكانوا في عداد أهل الذمة، والمراد بهم اليهود، والنصارى، ذلك أن الإسلام شملهم بالأمان، وصانهم بالعهود، والمواثيق، وكان يفرض على أهل الذمه الجزيه، واستثنى منها الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين والفقراء والمرضى وسواهم. وكان معاوية، وابنه يزيد، ومن بعدهما عبد الملك، وسواهم من خلفاء بنى أُمية يعتمدون أهل الذمه في إدارة الدولة، فقط كان سيرجون بن منصور من موالى معاوية، ويكتب له الديوان، وخلفه ابن يوحنا (يوحنا الدمشقى) في خدمة معاوية، ثم ابنه يزيد. وإلى جانب النصارى كان كان هناك قله من اليهود و السامرة، وكان النصارى يقيمون في المدن، خاصه بيت المقدس والمدن الساحليه عدا الأديرة، أما السامرة فكانوا يقيمون في مدينه نابلس والرمله، فيما تشتت اليهود في بعض المدن، باستثناء بيت المقدس أما الطبقة الرابعة في المجتمع فكانت طبقة الرقيق (١٣).

التنظيم الأدارى:

وضع أبو بكر الصديق أولى لبنات التنظيم الإدارى للدولة، حيث قال في خطابه للمسلمين: " لابد لكم من رجل، يتولى أمركم ويصلى بكم، ويقاتل عدوكم ". لكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع أُسس النظام الإدارى لدولة الإسلام، وقررمبدأ مركزية السلطة، معتبرًا ان الخليفة هو المسئول الاول عن إدارة شئون الدولة، وفق مبادىء الدين الجديد، لذا نهج نهجًا إداريًا، خلاصته أن من يتولى أمور الأقاليم مسؤول، مسئولية مباشرة أمامه.

وسار عثمان على نهج عمر، ولكنه انساق مع مطامع بعض أقربائه من أفراد العائلة الأموية الذين استغلوا صلة قرباهم به ليحققوا المكاسب لأنفسهم ويتولوا أعلى المناصب، الأمر الذي كان من جملة الأسباب التي أدت إلى الثورة على عثمان ولأن عهد الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب، امتلأ بالفتوحات، لذا لم يستقر التنظيم الإدارى، ويأخد شكله النهائي إلا في العهد الأموي [١٤].

في خلافة أبي بكر ظهرت فكرة مركزية السلطة، وظهر ذلك باعتبار الخليفة، رئيس الدولة، له حق اختيار من يشاء، لتصريف شئون الإدارة والحكم، وهو المسئول الاول عن اعمال من يختارهم، لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه. ودافع أبو بكر دفاعًا مستميتًا عن مركزية السلطة، وأرادت بعض القبائل ان تستقل بواردات الزكاة، وألا ترسلها إلى المدينة، فرفض ابو بكر، وأقسم انهم لومنعوه عقال بعير، كان يعطونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم من أجله. وسار على نهج أبو

بكر كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب، إلا أن خلفاء بنى أُمية، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، اتبعوا اللامركزية، في الإدارة سبيلاً لإعادة الاستقرار في الدولة الإسلامية، في ظل ظروف نجمت عن مقتل عثمان، والصراع على السلطة بينه وبين على بن أبى طالب، وبروز العصبية الاقليمية، التي تمثلث، بشكل واضح، في اتساع شقة الخلاف بين الشام والعراق، هذا فضلاً عن رغبة معاوية في توسيع رقعة الدولة، واستكمال عملية الفتوح في أقاليم تبعد عن العاصمة، دمشق، كثيرًا. كما أن العمل الإدارى في الأقاليم والأجناد لم يكن مسئولية الوالي وحده، بل كان يعاونه موظفون، يقيمون معه في الجند، ويمثلون مختلف الوظائف التي تشكل ما كان يُعرف " بالديوان "، الذي أسسه معاوية، وهو مكتب حكومى مهمته أن يستخرج نسخة من كل وثيقة رسمية، قبل أن تُختم، وترسل في سبيلها(١٥).

بيد انه يعزى إلى ابن الخطاب وضع أُسس الإدارة المالية، وحين دوَّن الدواوين أفرد للأمور المالية ديوانًا خاصًا وقد أنشئ لديوان الجند في الأردن وفلسطين ديوانا خاصا اتت اهم موارده من الزكاة والخراج، والجزية والعشور. أما الزكاة فتفرض على المسلمين، فيما تؤخد الجزية على رؤوس أهل الذمة. وأهل الذمة في الأردن وفلسطين هم النصارى واليهود والسامرة، فيما الخراج هو الضريبة على الأرض الزراعية والعشور الضريبة على التجارة التي تقدم على ديار المسلمين. ويقابل هذه الوارادت نفقات تترتب على بيت المال. وقد اشتملت سجلات بيت المال على جانب النفقات كما اشتملت على جانب الواردات، وأهم وجوه النفقات

هي العطاء، وهو المال الذي تفرضه الدولة للمسلمين المثبتين بالديوان، وفي خلافة بني أمية كان العطاء بين الزيادة والنقصان، وقد زاد معاوية العطاء لأهل الشام [١٦].

الصناعة والزراعة:

في مجال الصناعة اشتهرت الشام، عمومًا، ومدنها القديمه بصناعة الخزف، وقد حافظت على هذه الشهرة على مدى عصور التاريخ الإسلامى، وبخاصة الخزف المنقوش وكذلك الزجاج، وقد وصف زجاج الشام العديد من الرحالة، وضُرب به المثل في الرقة والصفاء، حتى قيل " أرق من زجاج الشام "، أو " أصفى من زجاج الشام "، وقد مهروا في زخرفته بالذهب وتلوينه بألوان زاهية، وبلغوا درجة كبيرة في الإتقان في ذلك، وكان الزجاج الملون يصدَّر إلى بقاع شتى في العالم. وكان صناعة الفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام وقد شاهد الرحالة المقدسى جدران وأروقة المسجد الحرام، وقد زينت بالفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام، وكذلك امتازت الشام بصناعة الأقمشة الحريرية (الدمقس أو الدمسكو) ويذكر أن طبرية كانت تنسج نسيجًا أبيض تصنعه ثيابًا، وكان ثمن الثوب منه اربعمائة درهم، لجودته، ومن الصناعات التي اشتهرت، صناعة الحرير. وأشتهرت طبرية بصناعة الورق هذا فضلاً عن صناعات أخرى: كصناعة السكر، على الساحل، بالقرب من عكا، وصناعة السفن في عكا، وصناعة السُبح في القدس، أما الزراعة، فقد وفرت، فترة صدر الإسلام وخلافة بنى أُمية للشام الامن والاستقرار، ونجحت على حد كبير، في إيقاف الصراع بين البدو والزرَّاع، وأحلت

التعاون بين الجانبين، كما توفرت الاموال اللازمة للاستثمار والتطوير، وهيأت السبل اللازمة لعناية أفضل بمنشآت الرى، وتوسيع نطاق الأرض المزروعة المعتمدة على نظام دائم للرى. هذا فضلاً عن إدخال زراعات جديدة، والاتجاه إلى الاهتمام بالمزروعات التي تصلح للتسويق لا للاستهلاك فحسب، كقصب السكر والقطن وسواهما [١٧].

الثروة الحيوانية:

كانت الثروة الحيوانية في فلسطين متنوعة، فقد كانت الاغنام تُربى في منطقة عمان، كما انتشرت تربية الجاموس، من شمال الشام إلى جنوبها، واعتمد أهالى فلسطين في غذائهم على لحمه ولبنه، واستخدم الجاموس في مناطق كثيرة للأعمال الزراعية. اما البقر فلم يكن لحمه مستساغًا وكان يرُبى للانتفاع بلبنه، واهتم أهالى الشام ومنهم أهل فلسطين، بتربيه الخيل، والبغال، والحمير، ومن الطيور اهتموا بتربية الأوز، والدجاج، والحمام، وكما برعوا في تربية النحل لاستخراج العسل، وكان العسل عندهم أنواعًا عدة وأفضله من نبات السعتر (الزعتر) في الأراضى المحيطة بالقدس، وجبل عاملة، أما السمك فكانوا يستخرجونه من بحيرة طبرية، وخليج العقبة [١٨].

الحياة الفكرية والعمرانية:

من أهم مظاهر التحول الفكري في فلسطين بعد الفتح، هو تضاؤل، ومن ثم انحسار الثقافة الهيلينية والسريانية، وحلول الفكر العربي والإسلامى محلها. والشام من أقدم مراكز الحضارة في العالم وأن أرضها شهدت عملية تمازج ثقافى دائم، إذا التقت على أرضها حضارة الفراعنة

والكنعانين، وفكرهم ومنجزاتهم، بحضارات ما بين النهرين، ومن ثم باليونان، والرومان، الذين أقاموا وجودًا سياسيًا على أرضها وخلفوا وراءهم آثارًا مادية [١٩].

النقود:

كان العرب قبل الإسلام، يعرفون الدراهم الساسانية والبيزنطية، ويستعملونها، وذلك بسبب اتجارهم مع البلدان التي كانت تستعمل نقود هاتين الامبراطوريتين، وأول من ضرب الدراهم والدانانير العربية في الإسلام هو الخليفة عبد الملك بن مروان وقد سميت الدنانير التي ضربها عبد الملك " الدمشقية ". ويذكر ان عبد الملك اصدر دينارا عربيا عام ٧٤ هـ - ٦٩٣ م " عليه صورة ترمز إلى الخليفة، واقفا يهم باستلال سيفه من غمده رمزا للتحدى القوى لامبراطور القسطنطينية، الذي كان طامعا باسترداد مدن الشام " [٢٠].

الوراثة في الدولى الاموية:

بدأ معاوية بالمبايعة لابنه يزيد سنة ٤٩ هـ - ٦٧٠م. ويروى ان معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة، وكان واليًا على الكوفة، آنذاك، يقول: " اذا قرأت كتابى، فأقبل معزولاً، فابطأ المغيرة على معاوية فلما حضر، سأله: " ما بطأ ". فأجاب " أمرا كنت أوطئه، وأهيئه "، قال: وما هو، قال، " البيعة ليزيد من بعدك "، قال: أوقد فعلت، قال: نعم، قال معاوية، ارجع إلى عملك ". وتربى يزيد بن معاوية في فلسطين مع امه ميسون بنت بحدل، وكان شاعرًا، ونشأفى البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد. وبعد توليه الحكم، أراد يزيد ان تتم له بيعة الحسين، ولكن أهل

الكوفة ارسلو إلى الحسين يدعونه للسير اليهم ووعدوه بالبيعة، لكن ابن عباس نصحه قائلا: " إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم " وفي طريقه للكوفة، قابله الفرزدق، وعبد الله بن مطيع العدوى، ونصحوه بالعودة لكنه أهمل النصائح [٢١].

في العاشر من محرم ٦١ هـ - ٦٨٢م، نشب القتال بين جيش العراق، ولم يكن به أحد من أهل الشام. وبين مقاتلى الحسين، في معركة غير متكافئة قُتل فيها الحسين، ودفن جسده بكربلاء، أما رأسه فقد أرسلت إلى يزيد بن معاوية في الشام، ويذكر ان رأس الحسين دفن في عسقلان في فلسطين ونقلته الدولة الفاطمية إلى القاهرة، عندما حكمت مصر [٢٢].

بوفاة يزيد بن معاوية، بويع بالخلافة لابنه معاوية الثانى، وكان في زمانه بيعتان، احدهما لمعاوية الثانى في الشام والأخرى في الحجاز لعبد الله بن الزبير، ولكن معاوية الثانى كان مريضا فتنازل عن الخلافة ولم تطل خلافته أكثر من ثلاثة أشهر وانزوى في بيته ومات بعد أربعين يوما [٢٣].

اضطربت الأفكار في سوريا وفلسطين، واتجهت الأنظار نحو الحجاز بعد تنازل معاويه الثاني عن الخلافة، وأجمع أمراء سورية على مبايعة عبد الله بن الزبير، ماعدا أمير فلسطين، حسان بن مالك بن بحدل، وعندما أراد شيخ بنى أميه مروان بن الحكم، مبايعة الزبير، أشار عليه عبيد الله بن زياد بأن يطلب الخلافة لنفسه، ونصره أمير فلسطين وهو خال يزيد بن معاوية ودعا روح بن زنباع واستخلفه على فلسطين وقال له: " أنى أرى أمراء الأجناد يبايعون لأبن الزبير، وأبناء قيس بالأردن

كثير، وهم قومى، فأنا خارج إليهم، وأقم أنت بفلسطين، فإن جل أهلها قومك، من لخم وجذام. وسار بن بحدل إلى الأردن فأخذ بيعتهم، وثار نائل بن قيس الجذامى وأخرج ابن زيناع من فلسطين وألتحق بالأردن، وبايع نائل لأبن الزبير، وأرسل حسان كتابًا إلى الضحَّاك بن قيس أمير دمشق، فلم يستجب لها فذهب إلى الجابيه، وقابل بنى أميه هناك، وبايعوا مروان بن الحكم، وذهبوا إلى الضحاك، وحاربوه، في مرج وراهط، وكانت هذه المعركة بين قيس ويمن، وهما اكبر القبائل في الشام وظفروا به ففر نائل الجذامى إلى الحجاز، وعاد روح بن زنباع إلى فلسطين، ثم توجه مروان إلى مصر، وفتحها، وبايع أهلها، ورجع إلى قريه السمراء، قرب طبرية، فشكر حسان، واثنى عليه، وعاد إلى دمشق، عاصمه ولايته، وعهد مروان بالخلافه لابن عبد الملك، وبعده لعبد العزيز. وعندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافه، اعترضته امور شاقة. ثورات داخلية، الخوراج، شيعه على، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسه عمرو بن السعيد [٢٤].

قبه الصخرة:

عمل ابن الزبير على بسط نفوذه على الجزيرة العربية، والمناطق الأفريقية، وجعل مكة مركز حكومته، وخشى عبد الملك من ضياع عرشه، خاصه عندما رأى الجموع الغفيرة من المسلمين تحج سنويا، إلى الكعبه، وكذلك عندما شعر بأن مركز عبد الله بن الزبير الدينى والسياسى، قد أخذ ينتشر في جميع البلاد الإسلاميه، فمنع عبد الملك بن مروان اهالى سوريا من الحج إلى مكة بحجه أن عبد الله بن الزبير كان

كان يجبرهم أثناء الحج على على مبايعته، ولكن الناس كانوا يتذمرون قائلين: " كيف تمنعنا من الحج إلى بيت الله، مع أن هذه فريضه علينا ". ولكن الخليفه أجاب " قال الرسول صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثه مساجد، المسجد الحرام في مكة ومسجدى في المدينه والمسجد الأقصى في القدس " [٢٥].

ذهب عبد الملك بن مروان بنفسه من دمشق إلى القدس، ومن هناك أرسل رسائل إلى جميع المناطق، وحكام المدن يستشيرهم في بناء قبه الصخرة المقدسة،، ليقى المسلمين من البرد والحر، كما يرغب، ايضا، في بناء مسجد ولكنه لا يرغب في أن يقوم بهذا العمل، دون استشاره رعيته، فأتته جميع الرسائل من حكام المناطق، تؤكد رضا الرعيه التام، وبانهم يعتبرون قصده قصدا دينيا. فكلف الخليفه رجاء بن حيوة، ويزيد بن الإسلام بالأشراف على بنائه، فوضعا خارطة لبناء صحن منطقه الحرم. وأمرهما بأن يبنيا بيتًا للمال، في الجهه الشرقيه من الصخرة، وقد اوقف على نفقات هذه الأبنيه دخل مصر، لمدة سبع سنوات وبدأ عبد الملك بناءه في ٦٩ هـ وأتمه عام

٧٢ هـ وبعد أن تم يزيد ورجاء البناء بقى معهم ١٠٠.٠٠٠ دينار ذهب، فأخبرا الخليفة، الذي أمر بها مكافأة لهم ولكنهما رفضاها فأمر الخليفة بصهر الذهب واستعماله في زخرفه القبه [٢٦].

في سنه ٧٢هـ / ٦٩٣ م توجه الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الحجاز، ليقضى على ابن الزبير، فذهب واحتل المدينه، وحاصر مكه، وخَّربها بالمجانيق، وأضر بالكعبة، وقسم حراسه أبواب المسجد على البلدان،

فأخذ أهل الأردن باب الصفا، وأهل فلسطين باب جُمع، وفي هذه الحرب كما هو معروف قتل عبد الله بن الزبير، ودانت البلاد لعبد الملك، الذي توفى ولي عهده، عبد العزيز، ٨٥ هـ فعهد بالخلافة، من بعده لابنيه الوليد، ثم سليمان [٢٧].

عندما تولي الوليد بن عبد الملك الخلافة، هرب يزيد بن الملهب، وقدم فلسطين، فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي، الذي أخذه إلي سليمان بن عبد الملك، في الرملة، وتشفع فيه، ونجاه، وبعد وفاة الوليد، تمت البيعة لأخيه، سليمان، وهو في مدينة الرملة، فبايعه الناس، وهو على سطوح الصخرة، وهم أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة، أو القدس، لكنه عدل عن ذلك وكان الخليفة الأموي سليمان (٧١٥ - ٧١٧)، يقيم في الرملة التي بناها، ولا تزال، مئذنة المسجد الأبيض، قائمة كما رممها المماليك، وغدا هذا المسجد، بعد المسجد الأموي، في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، الثالث بين مباني المسلمين الكبرى المقدسة في سوريا[٢٨].

بلغت السلطة الأموية أوج عزها، في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥)، وهناك اثنان من الخلفاء يجدر ذكرهما، من بعده، هما عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك [٢٩].

كان عمر (٧١٧ - ٧٢٠) الخليفة المتعبد الوحيد في عهد اشتهر بطابعه الدنيوى، وقد تأثر بجده لأمه، ثاني الخلفاء الراشدين، (عمر بن الخطاب)، الذي حمل اسمه، ووصف بتقاه وزهده وبساطته، وكان معاوية قد ابتدع هذا كما أن عمر منع النصارى من تقلد مناصب في الدولة [٣٠].

لما بويع الوليد الثاني كان مقيماً في البرية، فافتتح أعماله بنفي سليمان بن هشام إلى عمان، وأقبل على الشراب بنهم، وجاهر به، وانغمس في الطرب والموسيقى، واقتناء الكلاب المطوَّقة بقلائد الذهب، وانتهك حرمة القرآن، فنفر بنو أمية منه، وتجمع أمراء قبائل فلسطين، وأقروا خلعه، ومبايعة سواه، فراودو يزيد بن الوليد، الذي أجابهم إلي طلبهم، وظل متكتماً، إلى أن انتشر الوباء في الشام، فخرج العباس بن الوليد إلى القسطل، وأخوه يزيد إلى بادية الأردن، وأخذ يدعو لنفسه، وبايع الناس سراً، فعلم أخوه العباس، وتهدد أخاه، وأنذره بالسجن، أو إرساله إلى الخليفة، إذا لم يقلع عن عمله هذا، فلم يعقه هذا التهديد، وسار إلى دمشق، خلسة، واحتلها، وبايعه جميع أهلها، وضبط الأموال، والخزائن، وتوافد عليه أعوانه، فقدم أهالي جرش من فلسطين، وغيرهم، وكان الوليد في ضياعة نافراً من الوباء فغضب، وسيَّر جنداً إلى دمشق، حيث انضموا إلى يزيد، ثم سار بنفسه فالتقى العسكرين، وأسفرت المعركة عن خذلانهم فيها فبايعوا له.

وقد وثب أهالي فلسطين، بتحريض سعيد وضبعان، ولدي روح بن زيناع، على عاملهم، سعيد بن عبد الملك، فأخرجوه، وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك، فدعاهم إلى قتال يزيد، فأجابوه: " لأن أهالي فلسطين كانوا ميالين لأبيه ". ولما بلغهم ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك، واجتمعوا معهم على قتال يزيد، والتقى جمعهم في طبرية، قصبة الأردن أما سعيد بن عبد الملك، عامل الوليد بن يزيد على فلسطين. فإنه حين ارتحل عن فلسطين، خرج إلى يزيد بن الوليد، وأعلمه

بما آل إليه حال هذا الإقليم، فوجه يزيد إلي أهل فلسطين سليمان بن هشام على رأس جيش ليعيدهم إلى طاعة البيت الأموى وبعث سليمان إلى سعيد وضبعان، ابنى روح بن زنباع، وإلي الحكم وراشد ابني جرو بن بلقين، وإلى محمد بن عبد الملك، يمنيهم، ويعدهم إن هم دخلوا في طاعة الخليفة، يزيد بن الوليد: فأجابوا الدعوة، ورحل ضبعان بأهل فلسطين، وتفرق أهل الأردن فبار أهل طبرية، ونهبوا دواب يزيد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك، ولحقوا بقراهم ومنازلهم، ونزل سليمان بن هشام، بعد ذلك، الحنبرة، وقدم عليه أهل الأردن، فبايعوا ليزيد بن الوليد، ثم دخل طبرية، وتوجه إلى الرملة، وأخذ البيعة على من بها.

واستعمل يزيد بن الوليد على الأردن، أخاه إبراهيم بن الوليد، وعلى فلسطين ضبعان بن روح بن زنباع، إلا أن حكم هذه الخليفة لم يطل، فتوفى، بعد بضعة أشهر، وعهد بالأمر من بعده لأخيه، إبراهيم الذي لم يقو على مواجهة الأحداث، وآل أمر الخلافة، بعد ذلك، إلى مروان بن محمد، آخر خلفاء البيت الأموي، الذي سار إلى دمشق، من أرمينية فخلفه مروان، وأخذ البيعة لنفسه. ثم طلب إلى أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم، فأختار أهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، ابن أخى عبد الملك و اختار أهل فلسطين، ثابت بن نعيم الجذامي. ولم تمض على خلافة مروان ثلاثة أشهر، حتى خالفه أهل الشام، وانتقضوا عليه، بزعامة ثابت بن نعيم، الذي سار إلى مدينة طبرية، وحاصر أهلها ووليها الوليد بن معاوية، فقاتله أهلها، أياماً وأرسلوا رسولاً إلى مروان بن محمد، يعلمونه أمرهم، فكتب مروان بن محمد إلى أبي الورد بن

الكوثر، وكان في دمشق، فخرج إليهم، وحينما أقترب من طبرية، خرج أهلها على ثابت ومن معه، واستباحوا عسكرهم، فانصرف إلي فلسطين، منهزماً، فجمع قومه، وجنده، ومضى إليه أبو الورد، وهزمه، ثانية، وفرق من معه، وأسر أبو الورد ثلاثة رجال من ولده، وبعث بهم إلى مروان، وهم جرحى فأمر مروان بمداواة جراحهم اما ثابت فقد استطاع الهرب وتغيب معه ابنه الرابع، ودانت فلسطين لمروان، وولى عليها الرماحس وتم القبض على ثابت، بعد شهرين من ولايته، فأرسله إلى مروان، في دمشق، وأمر مروان بثابت وبنيه، الذين كانوا أسرى لديه، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وعرضوا في دمشق، وليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه، الخروج على الخليفة [٣١].

وبعد، بانتهاء الخلافة الأموية، خرجت فلسطين من دائرة الضوء، التي وضعها فيها الراشدون والأمويون على التوالي حيث غذت في العهدين ركناً متيناً من أركان الدولة، وعصبتها. فقد نقل الأمويون مقر الخلافة من مكة إلى دمشق، التي كانوا يعرفونها حتى قبل نزول الرسالة من خلال التجارة، وكانت حياة الخلفاء في دمشق حياة بذخ وترف، بالقياس إلى حياة الخلفاء السابقين في مكة، في حين أن حياه الخلفاء الراشدين في مكة موسومة بالوقار. وليالى الخلفاء في دمشق حفلت بالأبهة والسمر، ومجالس الأنس، كما أنهم استمروا التوسع في احتساء الخمور، حتى عرف يزيد بن معاوية

" بيزيد الخمور "، لإدمانه على شرب الخمر، كما عَرف عن الوليد الثاني

(٧٤٣ - ٤٤) بأنه كان يسبح في بركة خمر، ويشرب منها، حتى يهبط مستواها، ويقال إنه فتح القرآن يوماً، فوقعت عيناه على (وخاب كل جبار عنيد)، فغضب غضباً شديداً ورمى الكتاب بنباله حتى مزقه.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الثالث عشر

(١) د. أحمد شلبي، **الدولة الأموية نشأتها**، (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلاميه)، القاهرة، مكتبه النهضة المصرية، ١٩٨٤، ص ٢٤٧.
(٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٠.
(٣) عمر الصالح البرغوثى، خليل طوطح، " **تاريخ فلسطين** "، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٣، ص١٢٢.
(٤) **شلبي**، مصدر سبق ذكره، ٣١.
(٥) **المصدر نفسه** ص ٣٢.
(٦) محمد حسنين هيكل، " **بين الخلافة والملك. عثمان بن عفان** "، القاهرة، دار المعارف، ص ١١٥ - ١٢٤.
(٧) أحمد عباس صالح، " **اليمين واليسار في الإسلام** " بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د. ت، ص ٧٥ - ٧٨.
(٨) " **الموسوعة الفلسطينيه** "، القسم الثانى، المجلد الثانى، بيروت، ١٩٩٠، (انظر د. نبيه عاقل،
" فلسطين من الفتح العربي الإسلامى إلى أواسط القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى "
ص ٢٤٧).
(٩) لى سترانج، " **فلسطين في العهد الإسلامي** "، ترجمه محمود عمايرى، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، عمان ١٩٧٠، ص ٤٥ - ٤٦.
(١٠) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
(١١) **المصدر نفسه** ص ٢٩٧ - ٢٩٩.
(١٢) د. فيليب حتى " **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** "، ترجمه د. كمال اليازجى، الجزء ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩، ص ٩٧ - ١٠١.
(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٩٩ - ١٠١.
(١٤) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٩ - ٣٠٣.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٦ - ٣٠٩.
(١٧) سترانج، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٠ - ٩٥.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١٨.
(١٩) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ٣٢٠ - ٣٢١.

obeikandl.com

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٣١٣.
(٢١) شلبى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩ - ٥٠.
(٢٢) البرغوثى، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(٢٣) **المصدر نفسه** ١٢٤ - ١٢٨.
(٢٤) **المصدر نفسه** ١٢٤ - ١٢٨.
(٢٥) سترانج، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢ - ١٢٥.
(٢٦) البرغوثى، **مصدر سبق ذكره** ص ١٢٢ - ١٢٥.
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ١٢٥ - ١٢٧.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ١٢٨ - ١٣٠.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ١٣٠ - ١٣١.
(٣٠) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ٢٧٦ - ٢٧٧.
(٣١) **المصدر نفسه** ٢٧٧.

* * *

obeikandl.com